

العبور (*)

د. عماد الدين خليل

«مركب في عرض البحر حيث يبدو إلى اليسار جانب من الشاطئ يقف جعفر بن أبي طالب على حافة المركب يحيط به حشد من المهاجرين..»

جعفر: الحمد لله، ها نحن أولاء قد ابتعدنا عنهم، ولا أعتقد أن بمقدورهم الآن اللحاق بنا، لقد كادت أيديهم تصل إلينا قبل أن نضع أقدامنا على هذا المركب.. ماذا يريدون؟ فوالله ليمضين هذا الدين بأذرعنا إلى حيث أراد له الله.. ابن مطعون: انما هي محنة وستجاوزها إن شاء الله.

جعفر: حقبة، ونرجع إليهم لكي نصفي معهم الحساب..

ابن مطعون: أترى رسول الله سيلحق بنا؟

جعفر: (مبتسماً) فمن يكون للدعوة إذن؟ من يقف قبالة الوثنية لكي يلوي عنقها؟

ابن مطعون: ولكنني أخشى عليه وعلى أصحابه الذين بقوا معه هناك.

جعفر: (وهو ينظر صوب الشاطئ البعيد) لا تخش شيئاً يا أخي، فلينصرن الله دينه، أترى رحلتنا عبر هذا البحر؟ إنها رحلة كرحلتنا هذه.. عبور عبر المخاطر والعواصف والأنواء، صوب الأمن والسلامة.. انظر.. فيها هي الطيور تحوم في البعيد، ومعنى هذا أننا أوشكنا على إلقاء مراسينا عند الضفاف الموعودة، إن دعوتنا ستعبر المخاطر هي الأخرى، وسوف تلقي مراسيها يوماً!

ابن مطعون: ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.. ولكن قل يا جعفر.. أترأه سيفتح لنا صدره؟

جعفر: بكل تأكيد، ما دام رسول الله قد اختاره ملجأ، فمعنى هذا أنه سيلقانا بالترحاب.

ابن مطعون: ولكنني أخشى أن يؤثروا عليه، ويغيثوا صدره علينا.

جعفر: من؟

ابن مطعون: بطانته، وربما.. من يدري؟ قد ترسل قريش من يدفعه دفعاً إلى رفضنا..

جعفر: هوّن عليك يا ابن مطعون، فإني سأعرف يومها كيف أريه الحق حقاً والباطل باطلاً، وسأقنعه بقبولنا..

ابن مطعون: ما لنا وللهواجس والاحتمالات.. إن مهمتنا الآن هي أن نعب، وليفعل الله بعدها ما يشاء..

* يُطالع القارئ في هذا النص حواراً على لسان شخصيات تاريخية في عصور متباعدة، جمع بينها في هذا النص الإسلامي، الذي يجرب من خلاله لأول مرة -في نص إسلامي- تقنية أدبية عالية، سبق أن استخدمتها بعض مسرحيات قلائل في المسرح التجريبي. (المحرر)

جعفر: (هامساً) «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون» (منادياً) يا عبد الله، ركز بصرك في الأفق، فإن لمحت خط الشاطئ فكبر ثلاثاً فإني أحس أننا قد أوشكنا على الوصول.

عبد الله: سمعاً يا ابن عم رسول الله..

(تنفجر على حين غفلة جلبه عنيفة، وترتفع الأصوات الصارخة، ويهرع حشد من الرجال إلى وسط المركب، ونلمح من بينهم

عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو ينادي)

ابن أبي سرح: ارموا الكلاب والحبال على مراكبهم، واعبروا إليهم.. وقتلوهم هناك فوالله ما أريد أن يسمع أمير المؤمنين بأننا قد هزمنا في أول لقاء بحري حاسم مع العدو (يرفع صوته أكثر) انتصروا.. أو موتوا!

(يهرع المقاتلون إلى رمي الحبال والكلاب ذات اليمين وذات الشمال وترتفع نداءات الله أكبر وهم يعبرون إلى مراكب البيزنطيين ويشتبكون معهم بالخناجر والأيدي والعصي والسيوف).

ابن أبي سرح: (صارخاً) يا أبناء الذين عبروا إلى الحبشة لكي يحموا دينهم من الفتنة وأنفسهم من الفناء، قاتلوا عن دينكم ومصيركم، فوالله لتمضي كلمة الله بأذرعكم إلى هدفها..

أحد المقاتلين: (وهو ينزف دماً) لقد عبرت والله يا ابن أبي سرح مع أبي يوم الهجرة إلى الحبشة فسمعت جعفرًا رضي الله عنه يقول قولتك هذه.. انظر إلى البحر أصبح ثبجه دماً!!

ابن أبي سرح: وسيقولها من بعدي آخرون.. ولكن بدون هذا الذي تراه يخفق مع زبد البحر، بدون الأيدي التي تقاتل، والقلوب التي تنفجر باليقين، والعقول التي تعي جيداً كيف تصنع المصير العظيم، فلن يكون شيء.. (يصرخ) يا أبناء صحابة رسول الله.. شدوا..

المقاتل: (وهو يلفظ أنفاسه على حافة المركب) ليس أحب إليّ من الجنة التي تلوح لي إلا أن يحيني الله مرة أخرى لكي أواصل القتال.. يا بن أبي سرح أبلغ أمير المؤمنين عني السلام وقل له إن أمة تتمنى الحياة لكي تجابه بها الموت، سوف تعبر بحار العالم كلها تغرس راياتها الخضراء في الموانئ والتخوم.

طارق بن زياد: (يتحلق حوله في المركب حشد من المقاتلين) بلغني أيها المجاهدون أن لو ذريق قد أعد لنا جيشاً كبيراً، وما نحن الآن إلا قلة، ولكنني مصمم على أن أعبر إليه وأقاتله، فما هي إلا العزيمة منكم، والإيمان في قلوبكم حتى نرده على أدباره.. وما أريد أن إلقي بكم في التهلكة، ولكنني علمت من تنازع القوم، وضعفهم، وطمعهم في الدنيا وتهالكهم عليها ما لا يغني عنهم جمعهم الكثير، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله!

أحد المقاتلين: اعبر إليهم، فوالله لا نقول لك إلا ما قاله سعد بن معاذ لرسول الله ﷺ يوم بدر، امض بنا يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف عنك رجل واحد.

مقاتل آخر: (صارخاً) اعبر يا ابن زياد، فما هي والله سوى إحدى اثنتين النصر أو الجنة..

عبد الرحمن بن بشر: والله يا طارق لكأنني بأبي قبل سنوات يحدثني عن ذات الصواري، ويقول: كان أعداء الله أكثر منا بكثير، وكانت سفنهم تملأ البحر، وكنا نحن قلة من المقاتلين في قلة من المراكب، لم نجرب بعد قتال البحر، لكن إذن أمير المؤمنين لنا باقتحامه أشعل في قلوبنا نار الشوق إلى المجازفة وكنا نعرف جيداً أن ابن أبي سرح سيتزع النصر بكلمة الله..

«اعتبروا إليهم، فوالله لا

أريد أن يسمع أمير المؤمنين

بأننا هزمنا في أول لقاء

بحري مع عدونا»

طارق بن زياد: سننزل هذه المرة إلى أرضهم ونقاتلهم فيها، وستجدون أنفسكم بين بحر يمتد وراءكم وعدوّ ينتشر أمامكم، فليس لكم -ثمة- إلا الصدق والصبر.

أحد المقاتلين: ارمنا بهم، وستعرف كيف غضب الله، ولمن تكون الغلبة؟

طارق بن زياد: سوف تمضي أيام قبل أن نلقي مراسينا على الشاطئء واخشى أن تنطفئء الجمرة في قلوبكم، فبوقدتها التي تكوي فتحتم نصف العالم .. وبها ستفتحون نصفه الآخر.

أحد المقاتلين: لن تكون مياه البحر قادرة على إطفائها .. إن كتاب الله في قلوبنا، وإن زيتة الدّري يعرف كيف يصنع الجمر المتوقد ويحميه من الخمود والانطفاء.

طارق بن زياد: يا جند الله أبشروا فوالله ما هي إلا أيام قلائل وتعبرون إلى ما تستهون النصر أو الجنة! مسلمة بن عبد الملك: (على مركبه، قبالة القسطنطينية مع حشد من قاداته وجنده): أرايتم أيها المقاتلون؟ ها هي الشهور تكرر، والأسابيع تنصرم، وليس ثمة ما يوحى بالنصر المرتجى .. إن العبور إليهم، واقتحام أسوارهم هو المستحيل، وأنتم ترون بأعينكم قوة تحصينهم، وشدة منعتهم، وهم يأكلون ونحن نزداد جوعاً، ويتدفؤون ونحن نعاني الزمهرير .. وها هو الوباء يحاصرنا فيزيدنا ضعفاً على ضعفنا..

أحد القادة: إنها التهلكة إذن، ولن يرضى الله سبحانه أن نلقي بأيدينا إليها.. مسلمة: ولكن الخليفة يصّر على مواصلة الحصار..

القائد: وهل يدري الخليفة ما ينزل بنا؟

مسلمة: بعثت إليه برسالة أفصل له فيها القول وإني منتظر الجواب..

الرسول: (يقرب من مسلمة ويمدّ يده بالكتاب) جئت أنعي إليكم الخليفة السابق سليمان رحم الله وأحمل كتاب خلف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وهو أول ما كتبه بعد تلقيه البيعة!

مسلمة: (يقرأ الكتاب بين الفرح والحزن ثم يلتفت إلى قاداته): ها قد جاءكم الفرج ... أمير المؤمنين يأمر بالانسحاب فوراً، قبل أن يأتي الفناء على من تبقى منا، ويقول إنها التهلكة التي حذرنا منها كتاب الله، وإن دم المسلمين يجب أن يدخر للجولات القادمة وألا يذهب هدرًا..

القادة والجند: الحمد لله .. الحمد لله ..

مسلمة: (مخاطباً نفسه): والله إنه ليس الخوف من الموت، ولكنها الحكمة التي تقضي بالانسحاب، وسوف يأتي اليوم الذي نعبر فيه إليهم .. يقيناً إنه سيأتي .. أتراني يكتب لي شرف الإسهام فيه؟ (تدمع عيناه)..

أسد بن الفرات: (وهو يمدّ بصره شمالاً من مقدمة المركب الذي يقلّه وحشد كبير من الجند): لن يطول بنا السرى، فما هي إلا بضع ساعات ونكون عند شطآن صقلية بإذن الله!

أحد المقاتلين: بارك الله فيك أيها القائد الفقيه، لقد عرف الأمير ابن الأغلب كيف يختار قائده للحملة الكبيرة، إنه يريد أن يبعث روح الجهاد مرة أخرى .

متطوع أندلسي: عندما سمعت وإخواني أن الفقيه المعروف أسد بن الفرات هو الذي سيقود حملة الفتح قلنا إنها الفرصة التي كنا

نتظرها من زمن بعيد.. فلنتطوعن جهاداً في سبيل الله وابتغاء لمرضاته..

متطوع مغربي: لقد رأيت بعيني طلبة العلم وهم يتدفقون على فاس من القرى والأرياف يسألون عن الطريق الذي يوصلهم إلى تونس والوجهة التي ينبغي لهم أن يسلكوها.. وانطلقنا جميعاً لكي نلحق بالحملة قبل أن تفوتنا الفرصة لقد عاد والله زمن الجهاد!

أسد بن الفرات: (وهو يلتفت إلى الجند) سنرمي بثقلنا هناك، وسوف نلقى مقاومة كبيرة في أرض وعرة، كثيرة الشعاب، لا نكاد نعرف عنها شيئاً، ولكنه الشوق إلى إحدى الحسينين سيمكننا منهم بإذن الله.. لقد عبر طارق بن زياد البحر إلى الأندلس في قلة من أصحابه، ولكنه انتصر على عدوه الذي يفوقه عدداً وعدة، وركز رايات الإسلام هناك، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله..

أحد القادة: لقد تصور العدو إذ صدّ الغافقي عن اختراق فرنسا وردّ مسلمة بن عبد الملك عن القسطنطينية أنه أوصد الأبواب أمام الضربات الإسلامية إلى الأبد.. ها نحن أيها الفقيه الجليل نخترق خطوطه من القلب، ومن يدري؟ فلعل أوريا ستشهد في يوم ما تدفق جند الإسلام إلى أراضيها..

أسد بن الفرات: (مبتسماً وهو يربّت على كتفه): قل إن شاء الله! محمد الفاتح: (على المركب نفسه تحيط به حاشيته وقادته وتبدو بعض أسوار القسطنطينية واستحكاماتها): أيها المسلمون، هذا يومكم الذي انتظرتونه طويلاً.. أربعة قرون وانتم تحملون به.. إن أرواح أبي أيوب الأنصاري، ومسلمة بن عبد الملك، وكل الجنود المجهولين الذين استشهدوا وهم يحاولون العبور إلى حصون أعداء الله.. يطلّون عليكم من فوق، يشدون على أيديكم، ويدعون لكم بالنصر المبين (يرفع يديه إلى السماء ويجار بالدعاء) اللهم فنصرك الذي وعدت.. اللهم فنصرك الذي وعدت..

جموع القادة والجند: آمين.. آمين..

محمد الفاتح: أسابيع طوال ونحن نشدد قبضتنا عليهم ونضيق فيهم الخناق، وها قد آن الاوان لانزال الضربة الحاسمة.. غداً فجرأ ستنتطلق مراكبنا -على بركة الله- لكي تشن الهجوم الأخير وتقتحم الأسوار..

المقدم عبد العال حلمي: (على المركب نفسه يحيط به عدد من الضباط والجند): وكونوا حذرين فإن العدو إذا اكتشف أمرنا، أحبط عملنا، إنها الفرصة التي كنا نحلم بها منذ سبع سنين، والتاريخ لا يمنح فرصة بسهولة.. أحد الضباط: دقائق معدودات وسوف نخبرنا أيها المقدم.

ضابط آخر: في لحظات التوتر بجثم الزمن على صدر الإنسان بكل ثقله وجبروته، فلا تكون الدقيقة دقيقة بل ساعة، وتصير الساعة أياماً وشهوراً.

المقدم عبد العال: على رسلك، فإنه لم يتبق ثمة ما يفصلنا عن المصير..

الضابط: ليس النصر وحده ما أتحرق شوقاً إليه، ولكنه الانتقام.. وأصارحك القول فإن مشاعر قرون طويلة من الكراهية لأعداء الله، تتركز الآن، هذه اللحظة، هنا (يشير إلى قلبه)..

«هذا يومكم أيها المسلمون، لكأنجي بأرواح الشهداء تحاول العبور إلى حصون أعداء الله»

المقدم عبد العال: سننطلق بهذا الاتجاه .. أترون ذلك الجرف المطل على الجهة الأخرى من البحر؟ سنرسوا هناك، لكن ما نلبث أن نتسلل إلى أقرب موقع للعدو ونسعى لتدميره..

الضباط والجنود: رهن إشارتك أيها المقدم..

المقدم: (ينظر إلى ساعته) فلنتوكل على الله، لقد حلت ساعة الصفر.

(ينطلق المركب، وما نلبث بعد قليل أن نسمع صوت انفجارات متتالية وتراشق بالأسلحة، ونداءات الله أكبر .. الله أكبر .. تشق أجواء الفضاء .. وتتداخل الرؤية فيبدو خط بارليف في الأفق البعيد، ثم يتغير شيئاً لكي يظهر كما لو كان جانباً من حصون القسطنطينية، وحيناً ثالثاً يتشكف عن ساحل الأندلس، أو قبرص، أو الحبشة، أو صقلية .. ثم ما يلبث أن ينكشف الظلام ويبدو الفجر مضياً والمركب يستقر على الساحل وينزل منه ستة مقاتلين يحمل كل منهم بندقيته الرشاشة متجهاً صوب أحد مواقع العدو..)

جعفر بن أبي طالب: (وهو يندفع إلى خط بارليف) لحظات وتكف الملاحقة، إذا تمكنا من سحق رأس الأفعى فلن نخشى لدغتها أبداً..

ابن أبي سرح: (مندفعاً بالاتجاه نفسه حاملاً بندقيته الرشاشة صارخاً بالجنود من ورائه) سلطوا مياه خراطيمكم عليه ذا الساتر وافتحوا الطريق للمدفعات..

طارق بن زياد: (وهو يتوقف لحظات على الساحل موجهاً كلماته للجنود المتدفقين) البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر (ثم ما يلبث أن يطلق النار وهو يتقدم إلى خط بارليف).

مسلمة بن عبد الملك: (صارخاً) ها قد عدنا يا أعداء الله، وسوف نذك حصونكم على رؤوسكم، ولن تحميكم استحكاماتكم من بأسنا..

محمد الفاتح: (وهو يهرع إلى أحد المدافع ويرمي به مواقع العدو) تقدموا..

أسد بن الفرات: (وهو يقفز إلى البر ومن ورائه حشود

المتطوعين) إذا وضعنا أقدامنا على الأرض، فلن نستطيع قوة في العالم أن تردنا إلى البحر مرة أخرى (يصرخ) يا عون الله!

محمد الفاتح: (مستمر على ذلك مواقع العدو بمدفعه الثقيل) تقدموا، فإن وعد الله آت..

المقدم عبد العال حلمي: (يتسلق الساتر الترابي ومن ورائه جنده وضباطه، وإذا يوشكون على بلوغ أحد المواقع يمطرونه بالقنابل اليدوية والرصاص يخرج ثلاثة ضباط إسرائيليين وعدد من الجنود مستسلمين.. وخلال دقائق يتدفق الإسرائيليون من مخابئهم معلنين الاستسلام، ويهرع ضابط شاب برتبة ملازم إلى أحد المرتفعات فينزل علماً إسرائيلياً ويمزقه بينما يتقدم آخر لكي يرفع العلم المصري) الله أكبر (فired من ورائه الجنود والضباط) الله أكبر ..

الملازم: ها قد عدنا يا أرضنا الطيبة..

المقدم عبد العال: فلنمض على بركة الله نحررها شبراً .. شبراً ..

(تتداخل الرؤية مرة أخرى فنلمح حيناً المهاجرين الأولين وهو يتعدون عن الشاطئء موغلين في أرض الحبشة ونلمح حيناً آخر جند سعد بن أبي سرح وهم يندفعون في قبرص، وطارق بن زياد وهو ينطلق بفرسانه جنوبي أسبانيا، وأسد بن

«على طول الساحل ترتفع

تكبيرات الجنود

المطريين، يتدفقون على

الساحل الترابي وأمامهم

طيحات شهداء الحق»

الفرات ومتطوعيه وهم يجوسون في غابات صقلية متوغلين.. كما نلمح محمد الفاتح وهو يجتاز وكبار قادته إحدى بوابات القسطنطينية ويخرّ ساجداً لله.. وبين لحظة وأخرى ترتفع تكبيرات الجند المصريين وهم يتدفقون على طول الساحل صوب الساتر الذي دمرت جوانب منه، وفتحت الثغرات في جوانب أخرى.. وتصك الأسماع نداءات المقاتلين جميعاً، عبر العصور، وهم يصرخون: الله أكبر.. الله أكبر.. ونلمح جعفر بن أبي طالب يهرع إلى حيث يندفع المقدم عبد العال حلمي فيشد على يديه ويعانقه).

جعفر: مبارك عليكم نصركم أيها الأخ المقدم.
المقدم: (بتأثر) منذ قرون بعيدة أعطيتم الإشارة أيها الصحابي الجليل!
جعفر: لسنا وحدنا الذين أشعلنا الضوء على أية حال..

المقدم: بكل تأكيد.. لقد جاء من بعدكم رجال كرام كسعد بن أبي سرح وطارق بن زياد ومسلمة بن عبد الملك وأسد بن الفرار ومحمد الفاتح، ولكنكم كنتم أول من حاول العبور من أجل تثبيت كلمة الله ورفع رايات الإسلام في مسالك العالم وشعباه..

جعفر: (مبتسماً) من عجب أيها الآخر المقدم أننا عبرنا مغربين وها أنتم اليوم تعبرون مشرقين، والبحر هو البحر!

المقدم: سيان أيها الصحابي الجليل، إنما على المسلم أن يمتلك ارادة العبور وبدونها لن تشتعل مصابيح الهدى في ظلمات العالم، لن يكون ثمة فجر لليلة البهيم..

جعفر: (وهو ينظر إلى المدى البعيد) صدقت، فإنما هي إرادة العبور، أتدري أيها الأخ المقدم؟ لقد جاء الإسلام لكي يتحرك صوب كل مكان من هذا العالم.. يجتاز بحاره وجباله وصحاريه من أجل أن يصل إلى الإنسان.. منذ لحظات الفجر الأولى، وعبر الساعات الفاصلة التي سبقت معركة بدر وقف أحد إخوتنا الكرام وقال لرسول الله ﷺ بالحرف: امض يا رسول الله لما أردت فوالذي

بعثك بالحق لو اجتزت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف عنك رجل واحد!

المقدم: رضي الله تعالى عنك يا ابن معاذ لقد أجبت رسول الله بما كان يتمناه!

جعفر: ومن يومها والمسلمون يجتازون الموانع ويخوضون البحار تلبية لنداء سعد بن معاذ..

المقدم: (مبتسماً) سنكون عند حسن ظنكم أيها الصحابي الجليل!

جعفر: أتريد الحق؟ لقد اهتزت ثقتنا ببعض الشيء، ولكنكم الآن ترجعونها إلى اليقين، فحمداً لله..

المقدم: (بتأثر) كل الذي نرجوه هو أن نتاح لنا الفرصة كاملة للتعبير عن إيماننا العميق.. إيماننا الذي هو امتداد لأيمانكم المتفرد فيض من ينبوع الذي فجرته كلمات الله..

جعفر: (بتأثر هو الآخر) إنني أدرك جيداف مخاوفك، أحزان جيل بأكمله من المسلمين، فلندع الله ألا تحرموا فرصة التحقق النادرة هذه!

المقدم ولندع الله ألا نطعن من الورا!

جعفر: (مشيراً بيده إلى إحدى التحصينات اليهودية البعيدة) هل تدري يا عبد العال؟ لكأني عائد اللحظة من الحبشة لكي

«إنها فرحة العبور، حيث

جاء الإسلام ليكشف الغمة

عن هذا العالم»

ألتحق بجند رسول الله عليه السلام وهم يقتحمون حصون خير.. لكأني أسمع صيحة رسول الله (الله أكبر، هلك خير، إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين)!

المقدم: (متفكراً) التاريخ يعيد نفسه!

جعفر: ماذا؟!

المقدم: لا شيء، إنما هي عبارة اعتدنا أن نداولها دون أن نخبرها جيداف .. الآن تتكشف لي معانيها على مداها .. كانت لحظة مؤثرة أيها الصحابي الجليل .. ابن عمك يحتضنك بعد بضع عشرة سنة من الفراق .. يقبلك وهو يبكي!

جعفر: وسمعت يردد (والله لا أدري بمَّ أسرُّ بفتح خير أم بقدم جعفر؟) لقد كانت تلك أسعد لحظة في حياتي، وقلت في نفسي متى أجازيك يا رسول الله متى؟ لقد منحتني الفرح الذي لا يزول بعد سنين طويلة من التغرب، والحزن، والانقطاع .. فمتى أجازيك؟

المقدم: (بتأثر) ولقد جازيته بعد سنة واحدة، وهرعت إلى التخوم لكي تعبر وإخوانك، بالدعوة، حدود جزيرة العرب إلى الشمال، هذه المرة، فتناوشتك وإياهم سيوف أعداء الله .. أتدري أيها الصحابي الجليل، لقد انطبعت صورتك المتفردة في أذهان المسلمين عبر أربعة عشر قرناً، وستظل وأنت تحمل الراية يميناً، تتقدم بها، فتقطعها سيوف الروم، فتحملها يسارك، فتقطع هي الأخرى، فتشبت بها بما تبقى من ساعدك، حتى تشوط في رماح القوم .. لك الله أيها الصحابي الطيار إلى الجنة .. لك الله (يبكي) ..

«أيها المقدم، لقد هرعت

وإخوانك للدفاع عن

الدين الحق وينصرك

الله»

جعفر: ما اعتدنا أن نتحدث عن أنفسنا يا عبد العال، ولكن اسمح لي أن أقول بأن تعشقنا للشهادة هو الذي مكنتنا من العبور .. هو الذي جعلنا نجتاز بوابات الزمان والمكان .. ونحكم الدنيا!!

المقدم: (مشيراً إلى وحدة من القوات المصرية وهي تتوغل في سيناء بمواجهة النيران الكثيفة لأحدى تحصينات

العدو) ها هم أولاء يا بن عم رسول الله، يركضون إلى الموت مرة أخرى!

جعفر: (وهو يربت على كتف المقدم) وستنتصرون بإذن الله!

المقدم: آه لو منحونا هذه الفرصة منذ عشر سنين أو عشرين .. كانوا دائماً يرغبون في أن تملكنا محبة الدنيا وكرهية الموت ..

جعفر: يعرفونها جيداً، فلم يمنحوكموها .. إنها السر .. والكلمة .. والمفتاح ..

المقدم: وأخشى ما أخشاه أيها الصحابي الجليل ..

جعفر: (مقاطعاً) هيا يا عبد العال لكي نلحق بتلك الوحدة المتقدمة، فننال معها شرف مقاتلة العدو مرة أخرى .. إن الكلام لا يجدي نفعاً .. لقد علمنا رسول الله ﷺ أن نفعل ولا نتكلم، أن تكون أفعالنا هي الكلمات!

المقدم: (وهو يضع أمشاط الرصاص في رشاشه) صدقت يا بن عم رسول الله .. (ينطلق في قلب الصحراء وهو يهتف: الله أكبر .. الله أكبر .. فيرد عليه الجند المتقدمون: الله أكبر .. الله أكبر .. وهم يقذفون التحصين اليهودي ببوابل من النار. ولا غالب إلا الله).

مفاهيم غير إسلامية

في الشجر الحديث

للعلامة / محمود محمد شاكر*

يقول الدكتور مندور: «وأكثر خطراً وضراً من تهمة الخروج على القومية العربية، ممثلة في الإطار التقليدي للقصيدة، تهمة الخروج على الإسلام، يدعوى أن هذا الشعر الجديد يستخدم أحياناً ألفاظاً كثيرة التردد في دين كريم يعترف به الدين الإسلامي نفسه، كالدين المسيحي، مثل لفظة «الخطيئة» ولفظة «الخلاص» ولفظة «الصلب»، فهذه تهمة غبية. ونحن المسلمين نعتبر جميع الديانات الساوية جزءاً من تراثنا الروحي، بل جزءاً من التراث الروحي للبشرية جمعاء. ونحن حتى لو افترضنا العكس، لما جاز هذا التخبط في الاتهام، مراعاة لمشاعر إخواننا في الوطن الذين شاركونا دائماً أفراحنا وأحزاننا ومعاركنا الوطنية الكبرى ضد الاستعمار والرجعية والإقطاع والرأسمالية الجشعة، وهم إخواننا وأشقائنا الأعزاء الأقباط». انتهى كلام الدكتور مندور!

يحسنُ فيه إلا صريح العقل والمنطق. وإذا جاز للدكتور مندور أن يقول هذا للمسلمين، حتى ينتهوا عن إنكار ذلك على مَنْ يستعمله، لجاز أيضاً لمن يعكس الأمور من المسلمين أن يقول لأهل المسيحية: أرجوكم أن لا تستعملوا لفظ «الخطيئة»، و«الخلاص»، و«الفداء»، و«الصلب»، لأن ذلك يجرح مشاعر المسلمين؟ أمن العدل أن يطالب أحدُ نصرانياً بمثل هذه الحجة المتهافئة؟ هذا خَلْفٌ من القول رديء.

وأمر الدين أمرٌ جليل، لا يقضي فيه الدكتور مندور، أو لويس عوض، أو غيرهما، بما يشتهي هو ويحبُّ، بألفاظٍ دالة على معنى مفهوم، وهي لا دلالة لها إلا على سوء تصوُّر الأمور المشكلة التي تفضي إلى أكبر الأخطار. فقول الدكتور مندور «إننا نحن المسلمين نعتبر جميع الديانات الساوية جزءاً من تراثنا الروحي للبشرية جمعاء»، قولٌ لا يقوم على ساقٍ صحيحة ولا ساقٍ عرجاء، وليس يصحُّ له أن يُذيع مثل هذا على الناس، بلا احتفال ولا تقدير لدلالاته. وأقلُّ ما فيه من الخطأ أن قائله لا يحسن أن يفرق بين معنى «الديانة» كما يعرفها كلُّ ذي دين، وبين معنى «الكتاب» الذي أنزله الله



محمود شاكر

وقبل أن أبدأ في بيان ما أريدُ من خطر هذه الكلمات المختلطة التي تُلقى بلا حساب، أحبُّ أن أسأل سؤالاً، لا أوجهه إلى الدكتور مندور، بل لكلِّ من لا يدينُ بالإسلام من المواطنين: ما الذي يجرح مشاعرَ أحدٍ منهم، إذا قلنا إن لفظ «الخطيئة»، و«الخلاص»، و«الفداء»، و«الصلب»، وهي ألفاظٌ ذات دلالات واضحة في العقيدة المسيحية، ليست لها هذه الدلالات عندنا نحن المسلمين، وليس لها تاريخ أو أثر في حياتنا، كتاريخها وأثرها في حياتهم، وأن المسلم إذا استعملها، فإنه يستعمل ألفاظاً لا تؤدِّي معنى واضحاً في نفسه؟ وبلا ريب، لا يستطيع مجيبُ أن يقول: إنَّ هذه المقالة تجرُّني وتؤذي مشاعري! فإنه عندئذ يكون متجنباً أكبر التجني في إلزام من لا يدينُ بدينه، أن يدين بمدلولات ألفاظ لا أصل لها في عقيدته. أليس كذلك؟ فاستخدام الدكتور مندور، «أسلوب الحكيم» في عرض هذه المسألة، ضربٌ من المغالطة، وتحويل للأمر كُلِّه عن مُستقرِّه، وإدخالٌ للسفسطة في مقام لا

* عن كتابه «أباطيل وأسار» ط ٢، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٢، ص ٢٠٦ وما بعدها.

على نبي من أنبيائه. فالمسيحي مثلاً، لا يعدّ الديانة اليهودية ولا الديانة الإسلامية جزءاً من تراثه الروحي، وإلاّ انتقض عليه دينه - واليهودي أيضاً، لا يعدّ الديانة المسيحية، ولا الديانة الإسلامية جزءاً من تراثه الروحي، وإلاّ انتقض عليه دينه - وكذلك المسلم، لا يعدّ الديانة اليهودية ولا الديانة المسيحية جزءاً من تراثه الروحي، وإلاّ انتقض عليه دينه، لأن كل ديانة من هذه الثلاثة عقيدة شاملة منتزعة من كتابها كما هو عندها، وكما تفسره، وكل عقيدة منها تنقض كثيراً من عقائد الديانتين الأخريين، فغير معقول بوجه من الوجوه أن تعدّ شيئاً مما تنقضه جزءاً من تراثها الروحي، إلا إذا كان معنى «التراث الروحي» متسعاً للتناقض الذي لا يقبله عقل عاقل!!

فنحن المسلمين إنما أمرنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام، وأنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم عليه السلام، وأنزل القرآن على محمد ﷺ بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه، أي شاهداً عليها أنها حق من عند الله، أميناً عليها، حافظاً لها، فما وافق القرآن فهو الحق، وما خالفه، فالله حاكم بيننا وبينهم فيه يوم القيامة. وهذا بلا ريب صريح المعقول. أمّا أن يكون ما وافق القرآن وما خالفه جميعاً جزءاً من التراث الروحي للمسلمين وغير المسلمين، فهذا إبطالاً لقضية الدين كلّها،

ويكون معناه عندئذ أن تمنحي جميع الفروق بين الديانات. وخيرٌ للناس يومئذ أن يعترفوا جميعاً ببطلان دياناتهم، ويلتمسوا لأنفسهم ديناً آخر يجتمعون عليه. وهذا شيء لا يقول به أحدٌ من أهل الأديان.

وندعُ هذا الخلط في كلام الدكتور مندور، إلى دلالة الألفاظ التي سبق أن ذكرت في مقالتي الخامسة أن لويس

عوض، منذ ملأه ماله في «الخلوة المشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج» ثم أطلقه خلال الأدب عامة، والآداب العربية خاصة، لا يكاد يرى في سهاديره إلا «الصلب» و«الخلاص» و«الفداء» و«الخطيئة». ولا يكاد يرى ما يكتبه الكتاب والشعراء، كتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، وصلاح عبد الصبور، وغيرهم، إلا مقروناً بهذه العقائد. وهذه الألفاظ هي نفس الألفاظ التي جاءت في مقال الدكتور مندور، وأفتى فيها بما أفتى!!

وهذه الألفاظ الأربعة ينبغي أن تدرس بلا غموض ولا إبهام، كما يحاول ذلك من يحاوله من صبيان المبشرين، وبلا استهانة بدلالاتها كما يحلو ذلك الدكتور مندور وغيره ممن يعدّها رموزاً لتراثٍ روحي، لا بأس على المسلم في استعمالها. كلا! إن على المسلم كلّ البأس، لأنه لطريق مخوف بالمخاطر، لمن صدق نفسه، وعرف حرمة الكلمة كيف تقال، وكيف تفسر، وكيف توضع في موضعها.

وترتيب هذه الكلمات الأربعة في دلالتها عند القوم يأتي هكذا: «الخطيئة»، ثم «الفداء»، ثم «الصلب»، ثم «الخلاص».

وتلخيص معنى هذه الألفاظ الأربعة في العقيدة المسيحية: أن الله سبحانه

وتعالى لما خلق آدم من تراب وقال له: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فأزلهما الشيطان عنها. فبهذه

المعصية كما نقول نحن، وهي «الخطيئة» عند النصارى، أصبحا هما وذريتهما تحت سلطان هذه الخطيئة، لا ينفكون منها، واستحق البشر



الحكيم



مندور

والحزن والشقاء والسعادة، فهو الذي يؤازرهم بما يحتاجون إليه من العون، والحكمة، ويخلصهم من ثقل الخطيئة، وينجيهم من العقوبة المستحقة عليهم منذ كانت الخطيئة الأولى.

وهذه «الألفاظ الأربعة» لا تعامل معاملة أشباهها، من جهة دلالتها على عقيدة متكاملة. فالخطيئة، في لغة العرب الجاهليين، ثم في لغة المسلمين، لا تحمل شيئاً من معانيها ولوازمها في لغة النصارى، وإن كان اللفظ واحداً. ومعصية آدم عندنا معصية كسائر المعاصي، تمحوها التوبة، وخطيئة كسائر خطايا الناس، تغسلها المغفرة ممن يملك المغفرة، وهو الله سبحانه. وقد بين الله ذلك في قوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * . فكانت توبة آدم ماحية لمعصيته في الدنيا والآخرة، لا تستتبع عقوبة باقية، وأن الله سبحانه كتب في صحف إبراهيم وموسى: ﴿الَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. فلا يرث مولود خطيئة والدٍ ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ * وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى * . فهذا ينقض على المسلم استعماله لفظ «الخطيئة»، بمدلولها في الديانة المسيحية. لأن هذا الضرب من «الخطيئة»، لا أصل له في عقيدته، بل هو منهى أن يعتقد توارث الخطيئة، لأنه إذا اعتقد ذلك كذب خبر الله في كتابه، بأن لا تزر وازرة وزر أخرى، وتكذيب خبر الله واعتقاد خلافه كفر مجرّد. لا يختلف في ذلك أحد من المسلمين، ولا العقلاء عامة، مسلمين أو غير مسلمين.

جميعاً، بخطيئة والديهم، عقاب الآخرة وهلاك الأبد، وهذا هو ناموس العدل الذي لا يتغيّر، يستحقّه من عصى الله سبحانه عندهم، ومن ورث خطيئة آدم وزوجه، فإن عاقب الله آدم وذريته على خطيئتهم بهلاك الأبد، فذلك ما يوجب ناموس عدله في حكمه، ولكن ناموس رحمته يستوجب العفو عنهم، فناقض ناموس العدل ناموس الرحمة، فتطلب الأمر شيئاً يجمع بين الرحمة والعدل، فكانت الفدية التي يتم بها ناموس العدل، ويتحقق بها ناموس الرحمة. ولكن ينبغي أن تكون الفدية طاهرة غير مدنسة. وليس في الكون ما هو

ألفاظ المبشرين يجب أن تدرس بدقة لأن طريقتهم محفوف بالمخاطر

طاهر بلا دنس إلا الله سبحانه وتعالى. ولكن تعالى الله عن أن يكون فدية، فأوجبت المشيئة أن يتخذ جسداً يتحد فيه اللاهوت والانسوت، فأتحد في بطن امرأة من ذرية آدم هي مريم، فيكون ولدها إنساناً كاملاً من حيث هو ولدها، وكان الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - ، في الجسد إلهاً كاملاً، فكان المسيح الذي أتى ليكون فدية لخلق، وهذا هو «الفداء». ثم احتمل هذا الإنسان الكامل والإله الكامل، أن يقدم ذبيحة، ليكون ذبحه تمزيقاً لصك الدينونة المصّلت على رأس بني آدم، فمات المسيح على الصليب. فاستوفى ناموس العدل بذلك حقه، واستوفى ناموس الرحمة بذلك حقه، وهذا هو «الصلب». وكان احتمال ذلك كله كفارة لخطايا العالمين، تخلصهم من ناموس هلاك الأبد، وهذا هو «الخلاص»، ولما كان البشر كلهم خطاة بخطيئة أبيهم آدم وأمهم، فهم هالكون هلاك الأبد، ولا ينجيهم من عقاب الشريعة الإلهية العادل المخيف، سوى إيمانهم بالمسيح الفادي، وبحضوره في كل وقت في قلوب المؤمنين، في الفرح

وإذا بطل أن يكون للفظ «الخطيئة» عند المسلمين معنى يحمله، كالذي هو عند النصارى، بطل أن تحتاج معصية آدم إلى فدية تتطلبها ضرورة الجمع بين الرحمة والعدل. و«الفداء» بالمعنى الذي تدل عليه عقيدة النصارى، غير مفهوم عند أحد من المسلمين، ولا يرى ما يستوجبه، إذ لم تكن الخطيئة عندهم متوارثة في الذرية. وأما ما استوجب معنى الفداء من ألوهية المسيح وبنوته لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فإن الطفل الصغير يقرأ في أول ما يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. ثم يتعالى حتى يقرأ بعد

ذلك: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ

جميعاً﴾، إلى آيات كثيرة بهذا المعنى، فاستحال أن يكون ذلك من عقيدة أحد من المسلمين. وإذا استحال هذا، استحال ما يوجب معنى «الفداء»، ولا يبقى لهذا اللفظ سوى المعنى اللغوي العربي المشهور.

وإذا بطل هذان المعنيان لهذين اللفظين: «الخطيئة» و«الفداء»، على الوجه الذي هو من عقيدة النصارى وديانتهم، واستحال أن يقولها المسلم وهو يعتقد فيهما ما يعتقد النصارى، لم يكن للفظ «الصلب» بعد ذلك أي معنى، سوى المعنى اللغوي المشهور، سواء كان المسيح قد صلب كما يعتقد النصارى، أو لم يصلب، كما يعتقد المسلمون، بما أنبأهم الله سبحانه وتعالى، إذ يقول في كتابه الكريم، حين ذكر اليهود وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ

يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيمًا﴾.

وإذا استحال أن يكون لهذه الألفاظ الثلاثة معنى عند مسلم يعتقد صدق ما نزل على رسول الله ﷺ ربُّهُ من القرآن، استحال أن يكون للفظ «الخلاص» معنى مفهوم عنده، على الوجه الذي يعتقد من يدين بالنصرانية وعقائدها.

وإذا استحال أن يكون لهذه الألفاظ الأربعة: «الخطيئة» ثم «الفداء» ثم «الصلب»، ثم «الخلاص» معنى مفهوم عنده، على الوجه الذي يعتقد من يدين بالنصرانية

«الخطيئة» و«الخلاص» و«الصلب» و«الفداء» لهما

دلالة لهما عند النصارى ويجب التنبيه إلى ذلك

وعقائدها.

وإذا استحال أن يكون لهذه الألفاظ الأربعة: «الخطيئة» ثم «الفداء» ثم «الصلب»، ثم «الخلاص»، معنى عند المسلم على الوجه الذي تدل عليه أصحابها، فكيف تكون جزءاً من تراثه الروحي؟ أهذا كلام يُعَقَّل، كلاً بلا ريب، لا يعقله مسلم ولا نصراني ولا مجوسي، ولا ما شئت من أصحاب العقائد والديانات، ولا يخرج عن أن يكون سُخْفاً لا يُستغفل بمثله النصارى إرادة أن نستلب مودتهم. ولن يؤذيتهم ويحرج مشاعرهم أن نكون صُرْحَاء في التعبير عن وجوه الخلاف بيننا وبينهم في العقيدة، ولكن ربما آذاهم أن نتخذ ألفاظ عقيدتهم لهواً، بإدخالها في باب المداينة السخيفة التي لا تدل على عاطفة صحيحة، بل على آفة شديدة في هذه العاطفة. وكيف لا يؤذيتهم، وهم يعرفون أننا نقول لهم شيئاً فيما يمس عقائدهم، ونحن نبطن شيئاً غيره بل نبطن في الحقيقة إنكاره وتكفير القائل به، إن هذا

هذا الشاعر أو ذاك. فالنصرانيُّ
المعتقد في «خطيئة» أبيه آدم أنها
خطيئة لا تمحوها توبة، وأنه ورث
هذه الخطيئة في دمه، وأن نكال
الهلاك الخالد جائئٌ على روحه، إذا
استدفعه الإحساس الطاغى
الصادق إلى الإبانة عن كل ما في
نفسه من تراث دينه وعقيدته
وثقافته، فذكر بعد ذلك «الفداء»

هذه الألفاظ لا تعامل في الفكر الإسلامي معاملة

عند غير المسلمين، حيث يعتبرونها عقيدة

متكاملة من حيث معانيها ولوازمها

و«الصلب»، و«الخلاص»، في حق موضعيه من الشعر،
فقد أحسن غاية الإحسان في الإبانة عن نفسه، وعسى أن
يقرأه المسلم وغير المسلم، ممن شَمَّ طَرَفًا من معرفة عقائد
النصرانية، فيَهْتَرَّ لهذا الشعر اهتزازة لأي شعر آخر، ضَمَّنَ
بياناً مشرقاً عن إحساس صحيح نابض. وأظن أن الذين
يتكلمون في «معركة الشعر»، لم يريدوا قط أن يحجروا على
النصارى أن يقولوا من جيّد شعرهم ما جادت قرائحهم
بالجيد من الشعر، ولم يستنكروا على ذي عقيدة أن تجري
ألفاظ عقيدته في شعره.

ولكن الشيء العجيب المحير، هو أن كثيراً من زوّاد
الشعر الحديث في السنوات الأخيرة، قد أوغلوا في استخدام
هذه الألفاظ الأربعة، وقليل من أشباهها، في شعرهم، وهم
جميعاً مسلمون!! فالأمر عندئذٍ يوجب إعادة النظر. أهؤلاء
جميعاً قد تواطؤوا على استعمال هذه الألفاظ الأربعة
بدلالاتها اللغوية المجردة، أم بدلالاتها التي تتطلبها العقيدة
المسيحية مترابطة متواصلة لا ينقطع حبل معانيها المتداعية
من «الخطيئة» إلى «الفداء»، إلى «الصلب»، إلى «الخلاص»
كما أسلفت بيانه؟

فإذا كانوا قد تواطؤوا على استعمالها بدلالاتها اللغوية
المجردة فما الذي ألزمهم هذه الألفاظ الأربعة، ولم يضعوا
مكان الخطيئة مثلاً «الإثم»، أو «الذنب» أو «الحوب» أو
«المعصية»، أو «الزلة» أو ما شئت؟ وكيف تواطؤوا، على
تباعد الديار والأوطان، على هذه الكلمة، وأي سحر فيها؟

الفعل أقرب إلى السخرية بهم والاستهزاء بعقولهم. وهذا بيان
كاف في هذا الأمر إن شاء الله .

أما مسألة استخدام الشعر الجديد لهذه الألفاظ الأربعة،
فلا بُدَّ من تحديد وجهة النظر إلى هذا الموضوع. فالشعر
تراثٌ عامٌّ في كل لغة من اللغات، وسواء كان المتكلم بهذه
اللغة مُشْرِكاً، أم يهودياً، أم نصرانياً، أم مجوسياً، أم مسلماً، أم
جاحداً لذلك كله كافراً به، فمن حقه أن يستخدم شعر
اللغة للبيان عما في نفسه، لا يملك أحد أن يدفعه عن ذلك،
وليس يجعل شعره حسناً أن يكون اعتقاد الشاعر حسناً عند
قارئه، ولا يجعله سيئاً أن يكون اعتقاد الشاعر سيئاً عند
قارئه. فالشعر، هو كما قالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله
عنها- : «الشعر كلامٌ، فحسنة حسنٌ، ورديته رديءٌ، فخذ
الحسن واترك الرديء».

وإذا كان الأمر كذلك، فليس يعيب شعراً يقول نصرانيُّ
أن يأتي فيه بألفاظ أهل ملته، ما دام صادقاً في التعبير عن
نفسه بكلام جيد يدخل في باب الشعر. وتأتي على النفوس
أزمان وأحوال، تكون بعض ألفاظ العقيدة كأنها جوٌّ شاملٌ
محيط بالنفس الإنسانية، عميق الوُخز فيها، شديد التفجير
لها من نواحيها، فتجري الألفاظ عندئذٍ في مدِّ النفس، تلوح
معبرة عن معانٍ مختزنة من تجارب القرون التي عاشت بهذه
العقيدة، ومن التجربة الحديثة التي نبعت وانبثقت في نفس

استخدام الشعر الجديد لهذه الألفاظ يجب أن يقف

عند حد، فالشعر تجارب القرون وابن بيئته

وموروثه

لهذا الكاتب ألا يتبع سبيل المستهينين بحقوق الألفاظ والنقول، فليس في القرآن آية كالتى ذكرها، بل الذي قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾. فلزم التنويه! يا للعجب لصحيفة الأهرام!! ما أشد عنايتها وحفاوتها بما ينشر فيها!

وقد ذكرت هذه المغالطة، لأنها هي الطريقة المستعملة حديثاً!! في التفكير، ولأنها هي الستار الذي يُلْقَى على الحقيقة المفزعة، مضافاً إلى تَوَابُلٍ من ذكر «التطور» وسائر الألفاظ التي تباع الآن في الصُّحُف منظومة في الأعمدة، كما تباع عقود القُلِّ والياسمين على الأرصفة!! ولكن من البين أن هذه المغالطة قريبة مكشوفة، كما سلف. والحقيقة أن الأمر كُلَّهُ يتلخَّص في كلمات قلائل:

فهذه الكلمات الأربع، وهي أسس العقيدة المسيحية، لا يمكن أن تقع اتفاقاً، فيتواطأ عليها بعض الشعراء، لا عن عقيدة، بل عن رَمَزٍ لشيء يجدونه في حياتهم، فلا يجدون إلا هذه الأربعة بأعيانها. هذا باطلٌ بالطبع. ولكن الواقع أن في بعض البلاد وبعض الطوائف من جعل دَيْدَنَهُ في شعره، ذكر هذه الأربعة، ولا يُعَاب أن يذكرها لأنه مسيحيٌّ يعيشها عقيدة واقتناعاً، بجميع ما تلزمه العقيدة من امتداد معاني هذه الألفاظ وروابط بعضها ببعض.

ولكن هذا الضرب من الشعر، قد تَوَلَّى منذ قديم بعض صبيان المبشرين الترويج لَهُ، والإكثار من التلويح

ولم قالوا «الفداء» وأكثروا، ولم يقولوا قط «الكفارة»؟، ولم قالوا «الصلب» و«الصليب»، ولم يقولوا «الشنق»، «المشنقة» وهي أشهر وأعرف وأكثر استعمالاً إلى اليوم؟ ولم قالوا: «الخلاص»، ولم يقولوا «النَّجاة»؟ والجواب بلا شك أنهم لم يستعملوها بدلالاتها اللغوية، ولا فكروا في ذلك، لأسباب كثيرة جداً، أقلها أن التواطؤ

على هذه الصورة في ألفاظ أربعة من اللغة، يدخُل في باب المحال عقلاً حُدُوثُهُ، إذا زعم الزاعم أن ذلك واقع اتفاقاً ومصادفةً، فطابق الألفاظ الأربعة التي تقوم عليها العقيدة المسيحية.

ومن المغالطة الفاضحة ما قرأته في صحيفة لويس عوض، (المعروفة الآن بصحيفة الأهرام!!)، حيث زعم الكاتب أن أكبر ما أضافته الحركة الشعرية الجديدة هو الاستعانة بالرَّمَز، فالصلبُ عند كثير من الشعراء، رمزٌ لتضحية الإنسان في سبيل القيمة التي يُؤْمِنُ بها. والإسلام يعرف كلمة «الخطيئة» كما قال القرآن الكريم: ﴿وَاعْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾. وهذا نصٌ كلامه. ولست أدري كيف يتكلم الناس هذه الأيام، أبألسنتهم دون عقولهم، أم بهواجسهم دون تأملاتهم، أم بخطراتهم دون أفكارهم؟ لماذا كان «الصلب» رمزاً للتضحية، ولم يكن القتل، ولا الشنق ولا المثلة، ولا «الخازوق»، ما دام الأمر يتعلق باللفظ دون دلالاته المرتبطة بمصلوب بعينه أو مقتول أو مشنوق أو ممثل به أو مُحَوَّرٌ!! وأما «الخطيئة» فلم يقل لنا ما هو الرمز الذي اتخذت له. والإسلام كما يعرف «الخطيئة»، وهي التي يحتقِبها أبناء آدم، يعرف «المعصية» و«الذنب»، وقال في ذكر أبنينا آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، ولم يُسَمَّ معصية آدم «خطيئة» قط. فهذه مغالطات معيبة. وبالمرة يحسن أن يقال

يَفْعَلُ، إلا أن تتداركها العزائم المخلصة.

فمن هنا بدأت هذه الألفاظ الأربعة تأخذ طريقها إلى السنة هذه الطائفة من الشعراء المحدثين، مقرونة بالحملة المبددة لموازين الشعر القديم. فكان المسلمون من هؤلاء الشعراء، إنما يستعملون هذه الألفاظ لظنهم أنها جزء متمم لجدة الشعر، والإحساس بواقع الحياة التي يعيشونها، بما فيها من آلام الحيرة والضياع والاستبداد والمخاوف، فكان لهذه الألفاظ الجديدة سحرٌ في نفوسهم، فاتخذوها تقليداً، بلا فهمٍ لما تنطوي عليه من الدلالات. وكلما نشأ ناشئٌ منهم، قام له من يثني عليه ويمتدحه ويذيع شعره، حتى يجتذب إلى تقليده آخرين. وتفشت الكلمات، وطال عليها بعض الأمد. فلما جاء الاعتراض عليها، التمسوا تفسيراً لهذه الألفاظ المقلدة التي لا صدَى لها في نفوسهم، فقالوا هي «رمزٌ» فإذا سألتهم: رمزٌ لِمَاذَا؟ ولم كانت هذه الأربعة دون غيرها هي الرموز؟ - لم يُجروا جواباً، إلا كالجواب الذي أسلفنا ذكره، بما فيه من المغالطة. فالأمر كُلُّهُ مبنيٌّ على تقليد مجرّد، لا قيمة له، فالمقلّد لا يفصح أبداً، وإنّما يُفصح من جاء الإحساسُ بالشيء من قرارة نفسه، وقليلٌ ما هم في كل من يتكلم.

وفي هذا الأوان نفسه، يقوم لويس عوض وصيانه بتفسير آثار توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، وصالح عبد الصبور، على أساس من مفهوم هذه الألفاظ الأربعة، وأنهم وإن كانوا مسلمين، فإن آثارهم التي لا تحمل هذه الكلمات الأربعة بنصها تحملها جميعاً بمعناها ومبناها؟ وهذه إحدى الأعاجيب، ولكن ليس بعجيب أن يكون المبشر الداعية إلى تحطيم المجتمع العربي في خلال هذه الفترة الشديدة الخطر، قد لقّن كما لقّن غيره من الأبقاق في أماكن مختلفة، بين كتاب وشعراء، أن يبدأوا بثّ هذه الأفكار التي توهن الشعور باليقظة، وتشكك في الماضي، وتعلم النشء التقليد، أي الكذب على النفس وعلى الناس.

بأنه الجديد الذي لا جديد غيره وأكثروا في ذلك الصخب واللجاجة في الصحف والمجلات، وقارن ذلك تقشّي شعر «إليوت»، ومذهبه في تحديد الثقافة، وأن ثقافة الشعب، ودين الشعب، مظهران مختلفان لشيء واحد، لأن «الثقافة» في جوهرها تجسيد لدين الشعب، وأن السير إلى الإيمان الديني عن طريق الاجتذاب الثقافي، ظاهرة طبيعية مقبولة.

إذا كان نظام دنلوب الإنجليز

حاول قتل اللغة في دارها فيجب

أن تهب لنجبتها القلوب المخلصة

هكذا يرى «إليوت».

وبمكر وخبث شديد، مُزج بين «إليوت» ومذاهبه، وبين هذا الشعر الذي يحمل هذه الألفاظ الأربعة في فئة غريبة الأطوار من دراويش جبل لبنان.

وجلجل الدعاة بالمقالات الطنانة، واتخذت في كل بلد عربي ركائز لهذه الأبقاق، تذيع ما يلقي إليها أو تُلقنه، وظهر في مصر في أوائل هذا الوقت صبيُّ «الخلوة المشهودة تحت أشجار الدردار»، وأطافت به طائفة على شاكلته، وكان يومئذ في الجامعة مدرساً للغة الإنجليزية، وكتب شعر بلوتولاند الذي دلّث عليه - وكان الصبيُّ القديم «سلامة موسى» قد هَرِمَ وصار كهفاً لأعْيِلَمَة المبشرين في مصر - وبدأ لويس عوض نفت السموم، فصادف ذلك شباباً قلَّ محصولهم من الجدة في القراءة، وسئموا الشيء الذي يلقي إليهم فلا يفهمونه ولا يحترمونه، لأن نظام دنلوب كان قد انتهى إلى غايته في قتل اللغة العربية في عُقر دارها، في مصر، ولا يزال